قصيدة

في مدح ابراهيم باشا المصريّ

توطئة

في مكتبتنا الشرقيّة مخطوط صغير طولهُ ٢٠ سنتمترًا في عرض ١٣ من مجلد بمُقوّى (كرتون) احمر مع شقّة من الورق الملوّن. لا تتجاوز صفحاتهُ ستّ صفحات وجدناهُ في المكتبة الخديويّة في دمشق سنة ١٨٨٧ فاشتريناهُ. اما مضمونهُ فقصيدة قيلت في مديح ابراهيم باشا المصريّ لمّا فتح سوريّة سنة ١٨٣١ وهي قصيدة عامرة الابيات متينة التركيب تبلغ ٦٨ بيتًا قد كُتبت في مخطوطنا بخطّ نسخيّ بديع بالحرف الاسود مع شروح لبعض الفاظها في خلال الابيات بالحرف الاحمر على ورق صقيل ابيض ضارب الى الاصفرار. اما تاريخها فلم يدوّن في اوّلهِ ولا آخرهِ وانّا يرجّح ان صاحبها انشدها ابراهيم باشا ابن محمّد علي عند فتحهِ الشام في سنة ١٨٣٢ او ١٨٣٣. وكذلك لم يتّضح لنا اسم ناظم هذه القصيدة ما لم يكن المسمّى «ابن محمّد العطّار» الذي طُبع خاتمهُ في صدر الكتاب وفوق الخاتم بالحبر الاحمر «ملكة ابن العطّار» ولا نعلم من امرهِ شيئًا. وعلى كلّ حال رأينا ان ننشر هذا الاثر الادبيّ والتاريخيّ لئلّا تأخذهُ يد الضياع وفيهِ اشارة بيّنة الى انتصار ابراهيم باشا على جزيرة العرب ل. ش

الله اكبرُ جاء النصرُ والظفرُ ... والأمنُ واليُمنُ لمّا ساعدَ القدرُ
واخضرَّ روضُ الأماني فهي حاليةٌ ... كأنّما جرَّ فيها ذَيلَهُ الخضِرُ(١
وأشرقَ المجلسُ المسعودُ طالعهُ ... بطلعةٍ عن سَناها الطَّرفُ ينحسرُ
اعني الوزيرَ الذي أعتابهُ وَزَرٌ(٢ ... بهِ الوزارةُ كالعلياء تفتخرُ
اذ للوزارة ناموسٌ بهيبتهِ ... أحياهُ لمّا رآهُ وهو محتضرُ(٣
ما زال منذُ غدا التوفيقُ يصحبهُ ... لبيضةِ المُلكِ والاسلامِ(٤ ينتصرُ

١) الحالية المزيّنة. والخضر البقول ٢) الوَزر الملجأ
٣) يقول انّ للوزارة مقامًا جليلاً كاد قبلهُ يتلف فأحياهُ
٤) بيضة الملك والاسلام حوزتهما

العدلُ يُنشَرُ في ديوانهِ ابدًا والشرعُ يأمرُ والصَّمصامُ ينتظرُ
والحقُّ يعلُو على الاخصامِ قاطبةً والعلمُ مُحترَمٌ والمالُ محتقَرُ
مَن يَغرسِ العدلَ يَجنِ النصرَ عن ثقةٍ والعدلُ يُثمِرُ ما لا تُثمر الشجرُ
تعظيمهُ العلمَ عن فضلٍ ومعرفةٍ ما عظَّمَ العلمَ الَّا مَن لهُ خطرُ
كَمْ في السماء نجومٌ طال ما أَفلتْ وللعلوم نجومٌ ليس تَنكدِرُ(١
صدرٌ ولا ضَجَرٌ فِكرٌ ولا حَصَرٌ نُطقٌ ولا هَذَرٌ مجدٌ ولا بَطَرُ
معارفٌ صدرَتْ عنها عَوارِفُهُ إذْ صَدرُهُ البحرُ لكن لفظُهُ الدررُ
الفاظُهُ وزُلالُ الماء بينها تمازُجٌ ونسيمُ الرَّوضِ والسَّحَرُ
لا يستطيع انصرافاً عن تأمل ما يُملي ويُكتبُ لا سَمعٌ ولا بصرُ
يَطوي محاسِنَهُ والطيُّ يَنشرها كما تَبَرَّجَ(٢ في أكمامهِ الزَّهَرُ
مفاخرٌ ليس يُخفيها تواضُعُه وللصباحِ ظُهورٌ ليس يُستترُ
ذِكرى مناقبهِ في شرح سيرتهِ مطوَّلٌ لكنِ التَّخليصُ مختصرُ
ان طالعتْ كتبَهُ اعداؤُهُ كَسَرتْ فِقارَ أظهُرهم من خوفهِ الفِقَرُ(٣
من كلِّ معنًى بديوانٍ يقومُ لهُ قلبُ المُخاطَبِ اجلالًا وينفطِرُ
حصنُ العُقابِ غدا من خوفِ سطوتهِ يَرتجُّ من قبل ان تنتابهُ النُّذُرُ(٤
فسلَّموهُ واخفى الجِرسَ هاربُهم انْ صرصرَ البازُ اخفى سَجعَهُ النُّغَرُ(٥
وفرَّ قعدانُ والاقوامُ تَعذُرُهُ اذ فرَّ من أسدِ غضبانَ يَنتصِرُ(٦

---

١) أَفلَتْ اي غابت ويقال انكدرت النجوم اذا تناثرت
٢) تبرَّج تباهى وازدانَ ٣) فِقَر الكتاب مقاطيعهُ وسجعاتهُ
٤) حصن العُقاب كانَ في جهات نجد احتلَّهُ ابراهيم باشا
٥) الجِرس الصوت الخفيّ. والنُّغَر البلبل وفرخ العصفور
٦) قَعدان احد امراء العرب هزمهُ ابراهيم باشا. وامتصَرَهُ كسرَهُ

يهتزُّ في جفنه والدارُ نازحةٌ شوقاً الى وَدَجَيْهِ الصارمُ الذكرُ(١
قد كان في صيتهِ للقوم موعظةٌ ليت السفيهَ بغير السيفِ يتزجرُ
تخاطفوا بينهم إذ زارَ ارضَهمُ بالدارعين فلمْ صَلُّوا(٢ لما جهروا
إنْ سرَّ منهُ خيالٌ في خواطرهمْ ذابتْ سراتُهم وانحاتَ المِرَرُ(٣
توحَّشوا فرَقاً حتى موارِدُهمْ ما أسأرَ البقرُ الوحشيُّ والحُمُرُ(٤
فهاربٌ بجوارِ الرألِ معتصمٌ وآخرٌ بوجارِ الضبِّ مُنجحرُ(٥
لولا المفاوزُ وارتُهمْ لما وألوا هيهاتَ لمْ يَنجُ مَن ميعادهُ سَقَرُ(٦
فالذلُّ إن صبروا والرُّعبُ ان نفروا والقتلُ ان ظهروا والنارُ ان قُبروا
امّا العُصاةُ فقد ماتوا وما دُفنوا خوفاً واما الأولى دانوا فقد نُشروا
وحاربَتْهُ بنو حَرْب فأوردهم من المنيّة وِرْداً ما لهُ صدرُ(٧
فاصبحتْ منهمُ في البيد ساقطةً كما تساقطَ من اغصانهِ الشررُ
حتى اذا احمرَّتِ الصفراءُ من دمهم وسالَ في كلِّ وادٍ جدولٌ كدرُ
زارَتْهمُ النارُ في الدنيا معاجلةً تلك الربوعَ بما خانوا وما فجروا
تحصّنوا بالجبال الشامخات فما اغنتْ مَعاقِلُهم عنهم ولا الحذرُ
أخفاهم الرُّعبُ والتأمينُ اظهرهم لمّا استغاثوا فما غابوا ولا حضروا
كان السبيلُ الى البيت الحرام وقد تفاقمَ الامرُ صعباً كلُّهُ خطرُ(٨

---

١) الوَدَج عرق الاخدع في العنق ٢) . صَلَّ صوّتَ . والدارع لابس الدرع
٣) المرائر جمع سريرة وهي الغريزة وعزّة النفس . والمِرَر جمع مِرّة وهي قوّة الخَلْق وشدّته
٤) يقول ان اعداءهُ تفرّقوا في البراري كالوحوش حتى اصبح شُرْبهم ما أسأر اي ما أبقاهُ لهم من الماء البقر وحمرُ الوحش
٥) الرأل ولد النعام . ووجارِ الضبّ وكرُهُ . وانجحَر دخلَ فيهِ
٦) وألوا نجا . وسَقَر اسم لجهنم
٧) بنو حرب كانوا موالين للوهابيين في جزيرة العرب فكسرهم ابراهيم باشا لما سار الى محاربة الوهابيين
٨) كان الوهابيّون استولوا على مكّة وتفرّد جم الحجّاج في سيرهم الى الكعبة

حتى الطوافُ على طَيْفِ الخيالِ بما ظنّوا محالًا فخاب الظنُّ بل خسروا(١
ووكّلَ اللهُ بالحجّاج مشكِلًا عليهِ لا الخوفُ يَثنيه ولا الحَوَرُ(٢
يرعاهُمُ بجَنان كلُّه هِمَمٌ بلا فُتورٍ وطَرْفٍ كُحْلُهُ سَهَرُ(٣
يَهْنيه إكرامُ وَفْدِ الله فهو له ذخيرةٌ عند ربِّ الوفد تُدَّخَرُ
جبالُ زادٍ ببحر الآل تحملُها سفنٌ وما ثَمَّ ألواحٌ ولا دُسُرُ(٤
وبالروايا مياهٌ في المفاوزِ من افواهها كالسحاب الجُون تنهمرُ(٥
قُلْ للاعاريب كم رُومٍ وكم عجمٍ راموا الثبات له يوماً فما قدروا
فلا يغرّنكمُ بُعْدُ الديار فما على الأجادل بُعْدٌ حين تبتدرُ(٦
لا غَرْوَ فالاكرمُ المِغوارُ يُذكرُ في القابه الغُرِّ والالقابُ تُعتبَرُ(٧
وخيلُهُ لا تَزالُ الدهرَ مُلجمةً لا الوَهْمُ يلحق مَسْراها ولا النظرُ(٨
تسيل كالبحر الّا انها ابدًا نيرانُ حَرْبٍ على الاعداء تستعرُ
سياطُها العَتْبُ في الغارات ان فترَتْ والخيلُ تُعتِبُ فيما قرّرَ الاثرُ(٩
عَزّتْ لدَيْهِ نواصيها فقد غَبطَتْ جباهُهُنَّ خُدودُ الغيدِ والطُّرَرُ(١٠

١) اي كان المسلمون ينوون من الطواف حول الكعبة حتى زعموا انهُ امر خيالي محال لكن الممدوح خيّب آمال الاعداء بفتحهِ طريق الحجّ
٢) المتّكل عليهِ هو الممدوح
٣) اي انهُ يجعل السهرَ بمثابة الكحل لعينيهِ
٤) يقول انّه تحمل الزاد الى مكّة على سفن لا تجري على البحر بل في البرّ حيث لا تحتاج الى الواح ولا جسور. اراد بها الجبال المدعوّة بسفن البرّ حيث السرابُ يشبهُ ماء البحر
٥) الروايا قِرَبُ الماء. وتنهمرُ تنصبُّ
٦) الاجادل جمع أجدل الصقور وتبتدر تبادر وتسرع
٧) المغوار الكثير الغارات
٨) مسراها سَيْرُها. اي انَّ خيلهُ مستعدّة للقتال وعددها لا يُحصى
٩) اي انَّ خيل الممدوح اذا فترَتْ لا تحتاج الى السياق والضرب. فتُعتب اي تزيل التعابَ وتُرضي راكبها. يشير الى قول الحديث: عاتبوا الخيل فانّها تُعتب
١٠) نواصي الخيل شعر وزوسها. وغبطةُ حسدهُ والغيد جمع أغيد الناعم. والطُّرَر جمع طُرّة ناصية الجواري تكون على شبه العَلَم

مِنْ كلّ طِرْفٍ اذا ما الطَّرْفُ عاينَهُ تقشّعتْ لَبَّهُ الاوضاحُ والغُرَرُ(١
اذا جَرَى الماءَ من أعطافهِ عَرَقاً يكادُ يُقدَحُ من أحداقهِ الشَّرَرُ
أعدَّ للحَرْبِ قلباً ما بهِ وَجَلٌ ومدَّ للمجدِ باعاً ما بهِ قِصَرُ
قَرْعُ القَنَا وزئيرُ الأُسْدِ يُطربهُ عند الملاحِمِ لا كأسٌ ولا وَتَرُ
ان كرَّ يوماً رأيتَ الهامَ طائرةً كما تدحرجَ في ميدانها الأُكَرُ(٢
من تحتهِ البرقُ الّا انّهُ فرسٌ في سرجهِ اللّيثُ الّا انّه بَشَرُ
لا يُشهِرُ السيفَ في خَطْبٍ يُحاوِلهُ الّا على وَقْعةٍ تزْهو بها السِّيَرُ(٣
سيفٌ تبسَّمَ لمّا أن بَكَوا جَزَعاً كأنّما دَمُهم في خدّهِ خَفَرُ(٤
لو لم يكنْ في الطباعِ البَغْيُ ما طُبعتْ زُرْقُ الأسِنَّةِ والهنديّةُ البُتَرُ(٥
استقرِ آيةَ انزلنا الحديدَ تجدْ في طيّها حِكَماً فيهنَّ مُعتبَرُ(٦
كم أساءَ ذوو جَهْلٍ فعاقبُهم بالحلم والحلمُ يستبقي بهِ الظَّفَرُ
يُبرّ من الحلمِ عن رأيٍ يسدّدهُ والبحر يعلو وما من طبعهِ الكدَرُ
قد عشنا صَفَدًا من قبلِ مِدحته من بعد أن كانت الأصفادُ تنتظرُ(٧
جنى علينا رَعاعٌ اصبحوا هَمَلاً فنحن من اجلهم نُجفَى ونُعتذرُ(٨
أحيِ القرائحَ معروفاً ومعرفةً لا يَنبت الزرعُ ما لم يَبطُل المطرُ

---

١) الطِّرْف الكريم من الخيل. والاوضاح التحجيل في قوائم الفرس. والغُرَر البياض في جبهته

٢) الأكر لغةٌ في الكُرَة التي يلعبون بها شبّه بها الرؤوس المجندلة في الحرب

٣) اي اذا باشر المحاربة سُطّرت وقائعهُ في السير فتفتخر به

٤) الخَفَر شدّة الحياء. اي احمرار وجهه من دماء اعدائه يشبّهُ ما اتّصف به من شدّة الحياء

٥) اي لولا جَوْر الاعداء لما صُنعت السيوف الهنديّة. والبُتر جمع باتر السيف القاطع

٦) يشير الى قول القرآن في سورة الحديد (٥٧ : ٢٥) : وانزلنا الحديد فيهِ بأس شديد

٧) الصَّفَد العطاء. اي سبقت هباتهُ طالبي معروفهِ

٨) الرَّعاع سَفَلَةُ القوم. والهَمَل بلا راع

وامتازَ رَسْمي بهِ والشمسُ تَرْفَعُ عن ارضِ الذلّةِ طَلًّا حطَّهُ السَّحَرُ(١

فضعتُ للشكرِ عنّاً طالَ ما وأدَتْ(٢ ابكارَهُ قلّةُ الاكفاءِ والغِيَرُ

ولستُ امدحُ الّا عن مشاهدةٍ والخبرُ يُثبتُ ما لا يثبتُ الخبرُ

ما الفخرُ في الملبسِ المنسوجِ من ذهبٍ لباسُ اهلِ العُلى ما تَنسجُ الفِكَرُ(٣

لا زالَ منتشراً بعدَ الدُّعاءِ لهُ في كلِّ قُطرٍ ثناءٌ نشرُهُ عَطِرُ(٤

وفي آخرِ القصيدةِ ما حرفهُ :

اللهمَّ أَبِّدْ دولتَهُ وايّدْ عزيمتَهُ واجعلْ يومَهُ خيراً من امسهِ وأَدِمْ حراسةَ مجدهِ ونفسهِ بحرمةِ سيّدِ المرسلينَ صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وصحبهِ اجمعينَ

الآداب العربيّة

في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

﴿الشيخ محمّد عبده﴾ لا يجوز ان نفرق بين جمال الدين الافغاني وتلميذه الشيخ محمّد عبده . فانهما سيّان في النهضة الادبيّة التي حدثت في الشرق الاسلامي . ولد الشيخ عبده في اواخر سنة ١٢٦٦ ﻫ (١٨٥٣م) في شنبرا من مديريّة الغربيّة في

١) الطلّ الندى . حطّهُ السَّحَر اي ينزل عنه السَّحَر

٢) الوأد في الجاهليّة دفن الاناث احياء . اي كنتُ اخفي أبكارَ مدحي قبل حضرة الممدوح من قلّة الكفؤ ومن الغيرة على المدح لغير اهله

٣) اي ما يكسوهم به الشعراء من المديح والثناء

٤) النَّشر الرائحة